المحاضرة السادسة

لقاء النبي (صلى الله عليه واله وسلم) بالوحي٢

بعد هذا التصوير لننظر إلى ما جاء من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حول بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلاقته بالملائكة ، سنجد الحقيقة ماثلة بأنصع صورها بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم متآلف جدا مع الجو الملائكي ، وقد اعتاده منذ طفولته ؛ إذ إن العناية الإلهية قد قرنت به ملكا من أعظم الملائكة يتولى أمره، فلم تكن الأجواء الملائكية غريبة عليه ليفزع منها أو يحتاج معها إلى مقدمات.

قال أمير المؤمنين (ع): " ولَقَدْ قَرَنَ اللَّه بِه – صلى الله عليه وآله – مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلَائِكَتِه ، يَسْلُكُ بِه طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَه ونَهَارَه ، ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُه اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً ، ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِه ، ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ ، فَأَرَاه ولَا يَرَاه غَيْرِي ، ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ ، غَيْرَ رَسُولِ اللَّه – صلى الله عليه وآله – وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ".

يدلّ كلام الإمام (ع) على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان نبيّا منذ ولادته، بل قبل خلق الخلق كما يوافقه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل متى استنبئت؟ فأجاب: " بين خلق آدم ونفخ الروح فيه ". وفي هذه الإشارة ما يعضد هذا ، إذ إن العناية الإلهية تكفّلته فأوكلت به ملكا عظيما يسدده ويحفظه. فهنا الإمام (ع) يشير إلى أن علاقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالملائكة بدأت منذ طفولته وأنه قد ألف الأجواء الملائكيّة ، وأنها لم تكن غريبة عليه.

نعود لنتبع تفاصيل ما جاء في الروايات ، يأتي الملك ثانية ولكن هذه المرة يتجسد بصور شتى ، أبدعت مخيلة الرواة فيها أيما إبداع ، إذ نسجت تلك الصور بشيء من التصوير المادي الذي لم تتخطاه مخيلاتهم الساذجة! " فإذا الملك الذي جاءني في حراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه "، وراو آخر أملت عليه مخيلته أن الملك إنما جاء " في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء ، فوقفت انظر إليه "، وقد احكم احدهم وصف الملك المتبطر بأنه " واضعا إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح : يا محمد : أنا جبريل ، يا محمد أنا جبريل فذعر رسول الله ".

وتعاظمت صورة جبريل في خيال آخرين فوصفوه: " فإذا أنا بجبريل على الشمس جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب قال: فهلت منه فجئت مسرعا ، فإذا هو بيني وبين الباب، فكلمني حتى أنست به ". وصورة أخرى قد أعملت فيها الخيالات مبلغا أسطوريا إذ يصفه بلسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه اخضر" وانه " له ستمائة جناح "، وفي نص آخر : " رآه في رفرف اخضر قد سد الأفق "، وفي

صورة أخرى: " رأى شخصا بين السماء والأرض باجياد إذ بدا له جبريل فسلم عليه ، وبسط بساطا كريما مكللا بالياقوت والزبرجد " .

يلاحظ التغاير في صور جبريل في الروايات بعدة أشكال ليس في اللقاء الأول فحسب بل حتى في لقائه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في المعراج، وكلها تصويرات اضفت عليها خيالات الرواة الشيء الكثير ، ولم يحمل بعضهم هذا الاختلاف محملا سلبيا ، بل راح يؤوله بما يحلو له قائلا : " والروايات تتسع في ترائي جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في صور مختلفة ، ووجه ذلك : أن يكون لجبريل ضروب من الصور ، فكل مرة يترائى فيها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يثبت الله قلب رسوله لرؤيته فيها بقوة يجددها الله له ، وكل حالة إبقاء الله تعالى رسوله على جبلته ، ولا يحدث له فيها قوة ، يضعف صلى الله عليه وآله وسلم عن رؤيته ، فصعق صلى الله عليه وآله وسلم حتى ثبته الله تعالى ".

ولنا أن نسأل صاحب هذا الرأي: إن كان قد صح ما قاله بشأن تعدد صور الوحي وإنها في جانب القبول تكون مظهرا من مظاهر قدرة الباري عز وجل ، وإبداعه وأن له في خلقه شؤوناً ، ولكن هل يصح معها القول : إن ذلك كان لتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ إذن بماذا يفسر– مزاعم تلك الروايات – بردة فعله صلى الله عليه وآله وسلم حين كان قد رآه بتلك الصور ، فتارة يقع مغشيا عليه وأخرى يذعر فيها وثالثة يهال منه ويهرب ... الخ من تعدد حالات الفزع والرعب التي مرّ بها صلى الله عليه وآله وسلم ، فأي تثبيت حصل لقلبه الشريف ؟! بهكذا وصف غريب؟! وهل الله سبحانه بحاجة إلى أن يريه جبريل بهكذا شاكلة لترعب حبيبه المصطفى وتفزعه؟! وهو القائل ((وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ))، هذا من جانب ومن جانب آخر نعاود التساؤول ، أي رواية هي الأصح في تصوير شخص جبريل بالنسبة للقائه الأول بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ألم يلحظ أن الحادثة واحدة والحالات متعددة ؟ ثم أين تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد رجف وارتاب في نفسه صلى الله عليه وآله وسلم حتى ظن بها ظنونا شتى ؟ وقد تباينت حالات تلك الظنون تبعا لتباين الروايات أعلاه : فما بين ظنه بأنه مجنون أو انه كاهن أو به خبل بل انه قد خشي على نفسه . وأشفق عليها. من مغبة هذا الأمر وقد بلغ به الحال أن فكر في قتل نفسه والتردي من شواهق الجبال فاضطر جبريل أن يأتيه فيعرفه بأنه جبريل وانك يا محمد رسول الله، بل لم يكف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن فكرة قتل نفسه فكان يبادر لذلك كلما فتر عنه الوحي بعد أن قالوا له : إن ربك قد قلاك .

ولو قارنا بين رؤية هذه الروايات ورؤية القرآن الكريم حول هذه القضية لوجدنا الحق تعالى: ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ *وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)). وقوله تعالى: ((مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى *عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى *ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)).

فهذه الآيات تتحدث بوضوح عن طبيعة لقاء الوحي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء في المعراج أم غيرها ، ونحن نلحظ أن الله سبحانه قد نفى عن نبيه اتهامات " الجنون " و " الشيطنة " و " الغواية " " الكذب " الخ ، ولكن هذه الاتهامات إنما هي اتهامات قومه وليس ظنه بنفسه ويبدو أن الرواة قد استقوها من هذه الآيات ونسبوها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا نعلم الغاية من وراء ذلك فهل هي محاولة لتبرئة المشركين أم أن الهدف الوصول إلى نتيجة بان دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت قد أثارت دهشة أولئك الكفار فظنوا به الظنون واتهموه بالسحر والشعر والجنون، هي ذاتها الاتهامات التي ظنها هو في نفسه ، فيتساوى معهم من هذا الجانب ! إذ قد أدهشته نبوته ولم يصدق انه قد كلف بها؟!.